رواية ميلاد يسوع المسيح بحسب لوقا ٢/١.٧

الأب سمير بشارة اليسوعي

ليس من رواية أكثر تجرّداً، يبدو لي، من رواية ميلاد يسوع المسيح، كما يخبرنا إياها لوقا. إنها لوحة رسمت بدقة، بألوان ثقافة الحقبة اليونانيّة ـ الرومانية، بحيث لا تفكّ رموزها إلاّ بقراءة متأمّلة متأنّية. في الواقع، ثمّة مجموعات من الأنوار، أو بالأحرى المنارات، تلمع من خلال المقاطع أو الآيات لتنسج، في عالم الألفاظ الشاسع، هذه اللوحة: منارات تكشف النقاب عن إنسانية يسوع و تضيء بالتالي إنسانيّتنا و تاريخنا.

المنارة الأولى: "وفي تلك الأيام... " (٢/١).

يندمج ميلاد يسوع في سياق أحداث طبعت هنا بطابع زمنيّ خاصّ: لقد أحال هذا الميلاد بلا شك، "في تلك الأيام"، على أحداث سابقة: بشارة الملاك لزكريّا و لمريم، وزيارة أليصابات، وميلاد يوحنا المعمدان. وتشير هذه العبارة أيضاً إلى أن ميلاد يسوع حدث "في أيام هيرودس"، ملك اليهوديّة (٥/١). فالإشارة الزمنية المبهمة هذه قد تبدو تافهة، إلاّ أنها على خلاف ذلك: فهي عبارة كتابيّة عزيزة على الأنبياء، و بخاصّة إرميا: "و في تلك الأيام... أُنبت لداود نبتاً باراً... وفي تلك الأيام يُخلَّص يهوذا، وتسكن أورشليم في الطمأنينة" (ار٣٣/١٥-١٦)؛ "وفي تلك الأيام... يلتمسون الربّ إلههم" (٥٠/٤، ٢٠)، الخ؛ فإنّ هذه العبارة تحيل دائماً على مجيء المسيح المخلّص.

أليس المسيح التاريخي هو الذي بواسطة حدث ميلاده التاريخي يحقّق توقّعات التاريخ و يتمّم وعوده ؟

المنارة الثانية : " صدر أمر عن القيصر أوغسطس بإحصاء جميع أهل المعمور" (١/٢).

حكم القيصر أوغسطس من العام ٢٩ ق.م. إلى العام ١٤ م. كان أمبراطورًا شجاعاً، تكمن مقدرته في تعزيز الوحدة والسلام في الأمبراطورية. وما قد يثير الاستغراب أنّه، بالفعل، لم يكن ثمّة من إحصاء عام لكلّ الأمبراطورية الرومانية على أيامه، وهذا ما كان مستحيلاً، نظراً إلى اتساع أراضي الأمبراطورية، وإلى عدد الأقاليم أو المقاطعات الوفير[١]. في المقابل، كانت الإحصاءات المحليّة أمراً اعتياديّاً في المقاطعة، وكانت تدرج في إطار سياسة الإصلاح الإداري والاقتصادي في الأمبراطورية (كل ستّة أو اثني عشر عاماً). غير أنّ كلّ المسكونة هنا، "الأويكومينيّ"[٢]، ولا مقاطعة واحدة، تبدو معنيّة بهذا الإحصاء المرتبط بحدث ولادة المسيح.

هل تجاوز لوقا الدقّة التاريخيّة، وأضفى على حدث مجيء المخلّص بُعْداً شموليّاً يتخطّى الحدود ؟

المنارة الثالثة: "وجرى هذا الإحصاء الأوّل إذ كان قيرينيوس حاكم سورية" (٢/٢).

كانت فلسطين في حالة غليان العام ٦ ب.م.، إذ قرّر الأمبراطور ضمّ إقليم اليهوديّة الذي كان مستقلاً، الأمر الذي استتبع إجراء إحصاء للأشخاص والممتلكات، وأدّى إلى قيام اضطرابات وضغوطات جسيمة في البلاد[٣]. فالضمّ النهائيّ هذا، والإحصاء الذي حتّمه، ظلاَّ حيَّيْن في ذاكرة اليهود (وبالأخص "الغيوريين" منهم)[٤]. وقد عجّل، من جرّاء الأحداث العديدة التي

(١) P. BENOÎT, "Recensement de Quirinius", *Suppl. au Dictionnaire de la Bible*, Fasc. 50 B (1977) 694-720.

(٢) لفظة تشير الى الأمبراطوريّة الرومانيّة برمّتها.

(٣) لا بد من التذكير بأنّ اليهود كانوا يعتبرون أمراً مذلاً للغاية عمليّة الإحصاء هذه، لأنّها تجعلهم يخضعون شرعياً وبالتالي سياسياً ودينياً لنظام الأمبراطورية الرومانية.

(٤) P. BENOÎT, "Recensement...", p. 694-720.

سبّبها، في سقوط اليهوديّة، كما كان ولا شك دافعاً لخراب الهيكل في العام ٧٠ الميلاديّ. بيد أنّ ولادة يسوع حصلت تماماً قبل هذا التاريخ (في العام ٤ ق. م. بحسب المؤرّخين؛ لن ندخل هنا في الحساب الدقيق لتاريخ ميلاده)(٥). يعرف لوقا جيداً تاريخ عصره، والأثر الرئيسي الذي تركه هذا الإحصاء الأول في الذاكرة الجماعية؛ فهل أراد أن يصادف حدث توحيد الأمبراطورية الرومانية بحدث ميلاد يسوع؟

قد يدشّن يسوع التاريخي، بالإحصاء الأول هذا، تاريخ الخلاص "الروماني"، كما يفتتح أيضاً بميلاده تاريخ تزعزع اليهودية.

المنارة الرابعة: "وصعد يوسف أيضاً من الجليل... إلى مدينة داود التي يقال لها بيت لحم" (٢/٤).

إن الطريق من الناصرة إلى بيت لحم طويل ومضنٍ، فلِمَ أصرّ يوسف على أن يصطحب معه مريم؟ في الواقع، لم يكن الإحصاء يستدعي إلا حضور رب العائلة... هل كان يوسف يمكث في بيت لحم؟ وفي هذه الحال، أيكون قد ذهب إلى الناصرة بهدف إبرام عقد الزواج ومن ثَمَّ العودة ؟ أو كان فيها سابقًا لقضاء بعض الأعمال؟ يشير متّى ١ بالفعل إلى أن يوسف كان ينوي البقاء في بيت لحم بعد ولادة يسوع. هذا ما قد يشرح أنه أراد إعادة زوجته معه إلى بيت لحم. لماذا في "بيت لحم" ؟ إنّ الملك داود ولد في بيت لحم. وعلى المسيح أن يولد فيها بحسب الأنبياء (مي ٥/١). إن كان لوقا يشدّد على نسب يوسف الداودي، فإنّه لا يتردد أيضاً في إسناد لقب "مدينة داود" إلى "بيت لحم"؛ هذه التسمية التي تعني دائماً أورشليم في الكتاب المقدس. فعبارة "مدينة داود" مذكورة ثلاثين مرة في العهد القديم، إذ أن غالبية المراجع تشير إليها كموضع قبر الملوك. وفي إنجيل لوقا مدينة داود، أورشليم، مرتبطة دائماً بحدث آلام يسوع.

(٥) إنّ وثائق تلك الحقبة واضحة : فقيرينيوس لم يُجْرِ أيَّ إحصاء في اليهوديّة قبل العام السادس الميلاديّ.

"مدينة داود": بيت لحم وأورشليم في الوقت نفسه ؟ مكان ولادة ومكان جنازة ! هل علينا أن نرى في هذه التسمية الملتبسة وفي ذاك الغموض الجغرافي قصداً خاصاً عند الإنجيلي لوقا ؟ هذا ما قد يوضّحه النصّ لاحقاً.

المنارة الخامسة: "وبينما هما فيها، حان وقت ولادتها" (٢/٦)

بالأحرى، حرفياً: "وبينما هما فيها، تمّت الأيام لتلد". "تمّت الأيام" ("بمبليمي" باليونانية)، هي عبارة بيبلية تذكّرنا بنبوءة مشهورة إلى الملك داود: "وإذا تمّت الأيام... أُقيم من يخلفكَ من نسلكَ الذي يخرج من صُلبك... أنا أكون له أباً وهو يكون ليَ ابناً" (٢صم ٧/١٢-١٤). إن لوقا يعلم جيدًا بنبوءة النبي ناتان هذه والتي تنبّأ بها للملك داود عن مجيء المسيح. وسيشير إليها بطرس في عظته الأولى في أعمال الرسل (٢/٣٠). فلا يتردد لوقا هنا في استعمال الصيغة ذاتها للفعل اليوناني "بمبليمي"، كما استعملتها الترجمة السنعينية في ٢صم ٧، ليطبّقها في ولادة يسوع. فإنّ النبوءة الألفية المسيحانيّة هذه التي بقيت طويلاً في الإنتظار، يبدو أنها قد تتحقق أخيراً اليوم.

هل يسوع التاريخي هو الذي يثبّت تاريخ النبوءة كي يجعلها قابلة للتصديق؟

المنارة السادسة: "وأضجعته في مذود" (٢/٧)

لماذا أضجعت مريم إبنها؟ وفي مذود؟ يُترجَم الفعل اليوناني "أناكلينو" عموماً في العربية، و بصورة خاطئة، بالفعل "وضع" أو "أضجع"؛ لكن لهذا الفعل معنى خاص: فهو مرتبط دائماً بـ"الاتكاء على المائدة" حول الطعام أو الوليمة. (لو١٢/٣٧؛ ١٣/٢٩). يختار لوقا، كالمعتاد، كلماته بدقة: وكأنّ يسوع "أُتكِئَ إلى المائدة". كما أنه، يتابع النص، وضِع في مذود: فالمذود تكمن وظيفته بالتحديد في استقبال الطعام. لقد استُخدِمت كلمة "مذود" ("فاتني"، في اليونانية) ثلاث مرات في رواية الميلاد (٢/٧، ١٢، ١٦)، كما استُخدمت مرة وحيدة في مشهد المرأة المنحنية الظهر. لنقرأ هذا المرجع: "أيّها المراؤون، أما يحلّ كلّ

منكم يوم السبت رباط ثوره أو حماره من المذود، ويذهب به فيسقيه؟ وهذه ابنة إبراهيم قد ربطها الشيطان منذ ثماني عشْرة سنة، أفما كان يجب أن تُحلّ من هذا الرباط يوم السبت؟" (لو ١٣/١٠– ١٧). لقد أقام يسوع في هذا المشهد، وبصورة معبّرة، مقابلة بين المذود الذي ربط إليه الثور والحمار، وعبوديّة الخطيئة التي ربطت هذه المرأة ثمانية عشر عاما". فهذه المقابلة الإيحائية تضع "المذود" في علاقة مباشرة برمز تحرّر، تحرّر من قيود الخطيئة. هل علينا التذكير بأنّ المذود يُرمَز إليه دائماً بشكل مذبح في الإيقونوغرافيا، البيزنطية خصوصا ؟ مذبح سيُصبح يوماً مقاماً خاصاً لمغفرة الخطايا(٦).

ترتسم ملامح هذه الرمزية الإفخارستية في "بيت لحم"، التي تعني بالتحديد "مدينة الخبز": هل علينا أن نرى هنا "صدفة لغوية سارة"، وحيث تقع الجغرافيا نفسها في خدمة اللاهوت ؟

المنارة السابعة: "لانه لم يكن لهما موضع في المضافة" (٢/٧).

تدعونا المنارة السابعة إلى الدخول في سرّية هذه "المضافة". فالكلمة في اليونانية "كاتالوما"؛ و"الكاتالوما" هي مكان تجمّع الحجّاج في أورشليم. لم تُذكر هذه المضافة في أيّ موضع آخر إلاّ في مكان استراتيجيّ، ألا وهو مكان العشاء السريّ (مر ١٤/١٤؛ لو ٢٢/١١). تتكوّن هذه المضافة عموماً من ثلاث مستويات أو طوابق : طابق سفليّ، وهوالزريبة، حيث تُجمَع المواشي والعلَف؛ وطابق أرضي حيث الخدمات المشتركة (المائدة والمطبخ وتوابعه)؛ وطابق علويّ يتضمّن عدة غرف، ومنها غرفة واسعة مفروشة تدعى "العليّة"(٧). وهكذا يكون يسوع قد أبصر النور في الطابق السفلي، أي الزريبة، على وجه الاحتمال. على أنه سيختار يوماً، في عليّة أورشليم، الطابق العلويّ، ليرفع تلاميذه إليه، أثناء العشاء السرّي.

(٦) وحيث يكون يسوع المُتكئ إلى المائدة والقربان المقدّم عليها في آن واحد.

(٧) حول أركيولوجيّة المضافة ("كاتالوما")، راجع:

R. KARRIS, *The Gospel According To Luke* (London, 1993).

تصبح المضافة هذه مكانًا ينطوي على سرّين: هنا، مكان اتّضاع يسوع في سرّ التجسد، وهناك، مكان ارتقاء أو ارتفاع التلاميذ في سرّ الإفخارستيا.

تدعو رواية ميلاد يسوع في الواقع الى قراءة مزدوجة، لا بل إلى بحث مزدوج، تاريخي ولاهوتي: فالبحث التاريخي يكشف تاريخاً غامضاً، وإحصاءً "مغشوشاً"، وجغرافيا مشكّكة، و ظروف ولادة تلامس عدم اللياقة. أما البحث اللاهوتي فيرتكز، كما رأينا، على اعتبارات كتابية وتفسيرية مميّزة. إنّ الفصل بين القراءَتَين، أو محاولة فكّ لُغز الواحدة بمعزل عن الأخرى، تكون كمَن يحاول "تشريح اللحم" عن الهيكل العظميّ، أو إفراغ الجسد البشري من الروح الذي يحييه.

فإلى أي حدّ يمكننا، بالفعل، الإفاضة في الكلام على يسوع التاريخي من دون الأخذ بالاعتبار دائمًا رسالة الإيمان التي ترتبط به جوهرياً ؟